أمراض نفسية تتحدى العولمة (العولمة والطب النفسي)

أ.د. محمد أحمد النابلسي – الطب النفسي – لبنان

nabulsy@cyberia.net.lb

لا تخرج العولمة في كنهها عن كونها واحداً من بدائل المالتوسية. فالأولى تبدو كأنها تدفع العالم باتجاه صدام حضاري محتمل معه نهاية التاريخ، في حين تعدنا الثانية بنهاية العالم بسبب تضافر أربعة عوامل هي: 1- الفقر. و2- الجوع. و3- المرض. و4- الحرب.

بل أن العديد من متأملي نهاية العالم ينظرون لأزماته نظرة تراكمية فيجمعون بين عناصر المالتوسية والعولمة ثم يضيفون إليها خوف الألفيات (نهاية الثانية وبداية الثالثة) حتى يبدو المشهد متشائماً ودافعاً للاكتئاب. وبما أن أخطار العولمة أكثر إثارة للخوف، بسبب حداثته وعيها، فإن الخوف منها يتخطى كل الحدود. فمن فيروسات الحاسوب التي قد تتسبب بكوارث نووية أو بيئية أو إمراضية إلى مساهمة ثورة الاتصالات في انتشار أوبئة الإيدز وجنون البقر... إلخ.

وإذا كان الشك قد تطرق إلى المالتوسية إلى حد وصفها بالخرافة (أو أقله إلى حد إدراك إمكانية تعويض عناصر نقصها) فإن هذا الشك لم يصل بعد للعولمة. حيث نشهد انشطار العالم إلى شطرين. أحدهما غني ومؤيد لها (وإن كان لبعض الأغنياء تحفظات حولها). والآخر فقير معاد للعولمة. وهو يكرر نقاط اعتراضه عليها بوتيرة رتيبة ومملة وتكرارية.

وكما يبدى من عنوان مقالتنا فإننا نسعى لمقاربة الموضوع مقاربة علمية – طبية. إلا أننا نقدم لهذه المقاربة بسؤال قد يبدو في غاية السذاجة وهو:

1- العولمة... هل هي إيديولوجية جديدة ؟

ويمكننا الإجابة على هذا السؤال بتساؤل أبسط منه وهو: **هل تستمر الدول الغنية، وفي طليعتها الولايات المتحدة، في إصرارها على العولمة إن هي أساءت لاقتصادياتها ومصالحها ؟** ويأتينا الجواب من داخل الولايات المتحدة حيث صوت الكونغرس لسنتين متواليتين ضد مشروع إجراءات تسريع العولمة. وحيث خالف الرئيس كلينتون نظام السوق (وخرج على العولمة) بدعمه لصناعة الصلب الأميركية! في المقابل نجد أن مؤتمر جامايكا (تجمع الدول الخمسة عشر التي هرولت نحو العولمة) يعلن خطوات تراجعية عن الانخراط في نظام السوق (والعولمة الاقتصادية). ومثله مؤتمر القاهرة الأخير.

والواقع أن العولمة لا يمكنها أن تكون، أو أن تتحول إلى، أيديولوجية لأنها وليدة **فلسفة المنفعة (البراغماتية)**. حيث قيمة المعرفة (والنظرية) تتعلق بمقدار نفعها. وبالتالي فإن المعرفة تفقد كل قيمة عندما تتحول إلى ضارة اقتصادياً. وفي رأينا الشخصي أن هذا السؤال الساذج الذي طرحناه يوفر الكثير على معادي العولمة ونقادها. ويجعل موضوع العولمة أيسر فهماً بالنسبة لقطاعات واسعة من الجمهور.

2- فلسفة العولمة

هل تستند العولمة إلى فكر ما ؟ أو أقله إلى نظرية معرفية ما ؟ ففي حال وجود خلفية فكرية ما لهذه العولمة فإن مناقشتها تصبح أكثر جدوى وتركيزاً. فتنأى بالمعارضين و المؤيدين عن الخوض في التفاصيل التي يكمن الشيطان في طياتها !

واختصاراً نقول بأن **للعولمة خلفية فكرية** تتمثل بنوع من **الرؤية المعاصرة للبراغماتية الجديدة**. ونختصر مبادئها ببنود محددة هي التالية:

أ- إن الإنسان هو المقياس وسعيه للربح (القيمة) يتقدم أحكام الوجود لديه.

ب- إن الإنسان هو المساهم الرئيسي في بناء الواقع وقولبته. ولمزاجه دور في ذلك.

ج- إن الواقع هو مجموعة حقائق هي من صنع الإنسان. والواقع لا يمكنه أن يكون ثابتاً أو نهائياً. بل أنه يتغير باستمرار ويمكننا التحكم بتغيراته عبر تحكمنا بصناعة الحقائق.

د- احترام جميع المعتقدات ولكن مع تجنب الانزلاق في منزلقات التشيع للأديان خصوصاً (وربما من هنا صدام الحضارات) والحزبية (وربما من هنا نهاية الأيديولوجيا).

ه- البعد عن الضيق والتعصب والعنصرية (وهي دفاعات لدى كافة الثقافات لا تهدف للعدوان بقدر هدفها الحصول على الاعتراف - وبالتالي فإن الابتعاد عنها يعني إلغاء كل خصوصية) حتى يتحول الإنسان إلى مواطن عالمي - أي أن يتعولم.

وهذه المنطلقات النظرية المبسطة والمختصرة يمكنها أن تشكل قاعدة للحوار بين مؤيدي ومعارضي العولمة بعيداً عن التفاصيل التي حولت الموضوع إلى الملل.

3- الطب النفسي معادي للعولمة

إن الأطر والمبادئ الأخلاقية العامة المحددة للاختصاص والمتحكمة في ممارسته يدفعان بالطب النفسي إلى مواقف معارضة حادة للعولمة. ولنبدأ باستعراض هذه المبادئ:

3-1 يرفض الطب النفسي، رفضاً قاطعاً، المبدأ الروماني القائل بـ "ضرورة الجنون في مجتمع المجانين" ويصر على النظر للمضطرب **كإنسان يحتاج إلى علاج** ويحذر الطب النفسي من نشر هذا المبدأ (عن طريق ثورة الاتصالات أو العولمة أو غيرها) لأن أبسط نتائجه ستكون بتشجيع البحث عن السعادة عن طريق تعاطي المخدرات.

3-2 لقد تم إقرار الطب النفسي **كوسيط مفصلي بين الطب وبين الإنسانيات**. وبهذا الإقرار تم اعتماده حكماً في الإشكاليات الأخلاقية. من أطفال الأنابيب لغاية الاستنساخ البشري. وبات لحكمه

الرأي المقرر في هذه المواضيع. فتجاهل أحكامه الأخلاقية يؤدي للصدام مع الأنثروبولوجيا الثقافية ومع الأديان. حتى أن السياسة نفسها تقف عاجزة أمام هذه الأحكام. بدليل وقف الرئيس كلينتون أي دعم للأبحاث الجينية بانتظار البت بأخلاقياتها.

3-3 أن رفض الطب النفسي للمبدأ الروماني يعكس **احترامه لقدرات العقل البشري الإبداعية**. ومنها الاستفادة من أخطائه السابقة وتصحيحها. وأيضاً قدرته على إيجاد البدائل وبالتالي عدم استسلامه لنظام السوق (العولمة) بوصفها حلاً لا بديل له!.

3-4 أن حساسية الطب النفسي أمام حق البشر بالاختلاف جعلته **يحترم هذا الاختلاف أشد الاحترام**. لدرجه أنه لم يتوصل لغاية اليوم إلى وضع تعريف محدد للسواء (للتفريق بين الأسوياء والمرضى). وعليه فإن الاختصاص لن يقبل يوماً إلغاء حق الإنسان بالاختلاف. بل أن جهوده تنحصر في الحد من معاناة المرضى المتألمين.

3-5 بناء على البند السابق نجد أن الاختصاص يجري أبحاثاً ومراجعات دورية من أجل **التفريق بين ما هو مختلف وما هو مرضي**.

3-6 يصر الطب النفسي على كون **التنوع الإنساني مصدر غنى للإنسانية وللبشرية جمعاء**. وهذا يعني أنه لن يساهم يوماً في القضاء على هذا التنوع. ومع ذلك فإننا لا نهمل احتمالات إساءة استغلال الاختصاص. لذلك سنخصص لها الفقرة التالية :

4- نماذج إساءة استغلال الطب النفسي

إنها الثنائية البشرية (الخير والشر ومتفرعاتهما) التي تبرر إساءة استغلال العلوم والمعارف. ومن أمثلة ذلك في ميدان الطب النفسي نذكر :

4-1 المحاولات الأميركية لتربية أطفال عباقرة (هنالك سوابق نازية في هذا المجال). وهي محاولات أدت لتحويل الطفل إلى قرد عالم وفق تعبير الأطباء النفسيين الذين فحصوا هؤلاء الأطفال.

4-2 تسخير الهندسة الوراثية لإنتاج "السوبرمان" وهي تتحول إلى خطر داهم على الإنسانية بسبب محاولات احتكار هذه الأبحاث.

4-3 يشارك الاختصاص في شتى ميادين النشاط الإنساني (الاجتماعي – والسياسي - والاقتصادي ... إلخ) ولا بد من وجود منطقة رمادية يختلط فيها التدخل الأخلاقي مع التورط الأخلاقي في هذه الميادين.

4-4 إن محاولة إنتاج مصل الحقيقة (لاستجواب الجواسيس) ومنها إنتاج المخابرات الأميركية لمخدر L.S.D. هو أحد وجوه إساءة استغلال الاختصاص.

4-5 إن استخدام الاختصاص للتخلص من المعارضين السياسيين هو وجه آخر من وجوه استغلاله.

4-6 أن تورط بعض الاختصاصيين مع شركات الأدوية هو مثال عملي آخر على احتمالات إساءة استخدام الاختصاص.

وبالرغم من خطورة هذه الأمثلة وانتشارها النسبي فإن الغلبة تبقى للطابع الأخلاقي. إذ من المسلّم به أن الاعتراف (حفاظ الشخص على كرامته واحترامه) يغلب الكسب المادي (رغبة الربح) إلا في حالات شاذة.

5- أمراض نفسية تتحدى العولمة

توجد قائمة طويلة من الاضطرابات والأمراض النفسية التي يقتصر انتشارها على ثقافات بعينها. حتى إنك لا تجد لها أثراً في الثقافات الأخرى. ومن أشهر هذه الاضطرابات نذكر :

5-1 **اضطراب المجنون الراكض (تناذر آموك)** : وينتشر في جنوب شرق آسية ويمتاز بنوبات عدوانية تؤدي إلى قتل عدد من الأفراد قبل أن ينهك المريض نتيجة الركض والعراك. وقد يضطر المحيط إلى قتل المريض إذا فشل في ردعه عن الأذى. وينتشر هذا الاضطراب لدى الذكور ونادراً لدى الإناث. وهو ينطوي على أفكار اضطهادية ومخاوف من الموت المفاجئ. كما لوحظ هذا الاضطراب في البورتوريكو.

5-2 **تناذر كورو Koro** : وتسميته ماليزية وينتشر أيضاً في منطقة جنوب شرق آسية. ويتظاهر بالذعر الحاد والمفاجئ من الموت. مع الاعتقاد بأن عضو الذكورة سينكمش تدريجياً ليغرق في البطن ويسبب الوفاة، وعندما يصيب الأنثى (في حالات نادرة) فإن ذعرها يتركز على انكماش المشفرين.

يتبدى ارتباط هذه الظاهرة المرضية بالبيئة عبر إمكانية انتشار الاضطراب بين عدد كبير من السكان بشكل وبائي (وكأنه عدوى). وتجدر الملاحظة إلى أن الزميل القرشي قد وصف معاينته لحالة شبيهة الكورو في السعودية (منشورة في المجلة العربية للطب النفسي). كما لوحظ الاضطراب في الصين خصوصاً.

5-3 **تناذر لاتا latha** : وينتشر في أندونيسيا وماليزيا على وجه الخصوص وهو يصيب السيدات في أواسط العمر. وتتبدى المريضة في حالة من التفكك الفكري تجعل المريض تخضع لأي أمر يوجه إليها. مع حساسية مفرطة أمام الصدمات ومثيرات الخوف. مما يؤدي إلى تدني عتبة الوعي وقدرة التركيز لديها. حتى أن البعض يشبه هذه الحالة بحالة المتعرض للتنويم المغنطيسي.

5-4 **رهاب بالنيغ Paleng** : ويدعى أيضاً برهاب فريغو (Frigo) ؛ وهو خوف غير مبرر ينتشر في الصين وجنوب آسية ويتجلى بالخوف من الرياح. مما يدفع المريض إلى لبس كميات هائلة من الثياب مما يتسبب بإرهاقه. فإذا لم يجد منقذاً فإن الخوف الشديد والإرهاق الجسدي قد يؤديان به إلى الموت.

5-5 **تناذر دهات DHAT** : ويصادف في الصين والهند وسيريلانكا وبعض مناطق الجوار - حيث يعطى مسميات مختلفة من منطقة لأخرى - ويتجلى بنوبة ذعر شديدة الوطأة مترافقة مع مظاهر جسدية (عصبية ونباتية) وحادة. ويعتقد المعالجون المحليون أنها على علاقة بالإفراط في الجماع. حيث يبدأ الخوف متركزاً حول خوف فقدان السائل المنوي (أو الإفراز المهبلي) وينتهي بالخوف من الموت لهذا السبب.

5-6 **تناذر الزوجة الأولى** : وهو خاص بالمجتمعات التي تسمح بتعدد الزوجات. وهو يصيب الزوجة القديمة ويتجلى بمعاناة تشبه عصاب الهجر في علائمها مع علائم اكتئابية من النوع التعلقي (Anaclitic). وفي حال عدم علاجها تتحول الحالة إلى الأزمان ويمكنها أن تتجلى بتعقيدات جسدية - مرضية أو بإمراضيات نفسية متنوعة.

وتطول قائمة هذه الاضطرابات الخاصة بالثقافات لكننا نكتفي بهذه الأمثلة منها تأكيداً على طابع الخصوصية والتنوعية في مجال المرض كما في مجال السواء. وهذه الأمثلة تؤكد على مبدأ أساسي من مبادئ الطب النفسي. وهو **مبدأ ذاتية المعايشة**. فكل إنسان (سوياً كان أم مريضاً) يعايش البيئة المحيطة به على طريقته الخاصة. وبالرغم من وجود عوامل مشتركة بين جماعات البشر (الثقافة والتربية والدين وغيرها) فإن المعايشة تختلف من شخص لآخر باختلاف بصمات الأصابع.

وإذا كانت معايشة الحياة قابلة لإيجاد قواسم مشتركة عبر النظم والمعايير الاجتماعية (بما يفتح الجدال عريضاً أمام احتمالات اختراقها بوسائل الإعلام وبالتالي عولمتها) فماذا عن معايشة الموت ؟

إن ثورة الاتصال وتكنولوجيا المعلومات والأحياء تقف عاجزة عن اختراق جدار الموت. وبالتالي فإنها عاجزة عجزاً مطلقاً عن عولمتها!؟. وهكذا فإن انتصارات العولمة تقف عند حدود المعايشة الذاتية للموت. أي الطريقة التي يتخيل فيها الفرد موته الشخصي. وانشطار روحه عن جسده وما ستؤول إليه كل منهما. وهذه المعايشة هي الأساس في تركيبة الجهاز النفسي للإنسان المدرك لمفهوم الزمان دون غيره من المخلوقات. كما أن

هذه المعايشة هي الموجهة لغرائز الإنسان. وفي طليعتها غريزة اسـتمرار النوع.

6- فشل العولمة من فشل الإيديولوجيات

معظم نقاد الماركسية يعزون فشلها إلى **تعارضها مع الغرائز الإنسانية وفي مقدمتها غريزة الربح**. وهي غريزة متداخلة مع بقية الغرائز متشابكة معها. فأحياناً يرى الإنسان الربح في غريزة الجنس أو البقاء أو اسـتمرار النوع أو غيرها من الغرائز. ولما كانت الماركسية تكبت هذه الغرائز فإنها كانت متعارضة مع الطبيعة البشرية بحيث تستدعي التسـامي والارتقـاء فوق الدوافع الغريزية. مما يمكنه أن يحصل في ظروف معينة ولكن ليس بصورة دائمة. لكن الملفت أن المدافعين عـن العولمـة الـذين ينقـدون الماركسية والإيديولوجيات على هذا الأساس لم ينتبهوا إلـى أن العولمـة نفسها تعاني من إهمالها للغرائز الإنسانية وتجاهلها لها. فهي، أي العولمة، والبراغماتية المحركة لها تستجيبان لغريزة الربح. إلا أن هذه الاسـتجابة ممسوخة لكونها تقف عند حدود المنفعة ولا تتعداها إلى جوانـب الـربح المعنوي. وهذا ما يجعل العولمة تبدو هازئـة مـن الضـمير الأخلاقـي ومتصادمة معه ومع تجلياته. ومنها الطب النفسي. حيث شرحنا لحيثيـات هذا التصادم.

وقد يستغرب القارئ محاولتنا جذب النقاش حول العولمة إلـى سـاحة الطب النفسي وحصره في هذه الساحة. لكن هذا الاستغراب يزول عنـدما نعلم أن البراغماتية هي التي اختارت هذه الساحة. إذ انطلقت من الإنسان وجعلته طموحها الفلسفي والمعرفي (ساخرة من الفلسفة التقليدية الباحثة في الكون والماورائيات والمجردات) حتى أن أول كتب مؤسس البراغماتيـة الأميركية ويليام جايمس كان بعنوان "مبادئ علم النفس". وبـذلك يمكـن الحديث عن الارتباط الوثيق بين كل من السيكولوجيا والبراغماتية. لكـن هذا الزواج لم يكن مثالياً بحال من الأحوال. فقد اشترطت البراغماتية عبر مدرستها النفسية (المدعوة بالسلوكية) عدم التعاطي مع العقـل باعتبـاره صندوقاً أسود لا ضرورة للعبث بمحتوياتـه والاكتفـاء بمراقبـة سـلوك وتصرفات صاحب العقل. ولا ريب أن هذه الطريقة السلوكية قد تمكنـت من تحقيق إنجازات هامة وتقديم حلول علاجية من الدرجة الأولى. لكـن متاعب السلوكية بدأت مع تنامي قدرة أطباء الأعصاب على سبر أغـوار الدماغ واختراق العلبة السوداء (الدماغ) مما تسبب بإحراجات لا تحصـى للمدرسة السلوكية ومعها البراغماتية. التي بدأت تضعف أمام تطورات التكنولوجيا الأحيائية. وعندما توصلت أبحاث التصوير العصبي إلى تحديد مناطق دماغية مصابة فإنها توصلت بذلك إلى إحراج البراغماتية وتهديـد منطلقاتها النظرية. فلو عدنا إلى فوكوياما الـذي يؤكـد علـى أن ثـورة البيولوجيا ستشكل انتصاراً للبراغماتية لوجدنا أن اسـتنتاجاته فـي غيـر مكانها. إذ أن هذه الأبحاث هي مقدمة لضرب رؤيـة البراغمـاتي الأول نيتشيه وتشاؤميته التي تقول "أن الإنسان هو حيوان لن نتوصل يوماً إلـى معرفته"!. إلا أن هذه الأبحاث تجعلنا أكثر أملاً في التعرف إلى الإنسـان وإلى طريقة عمل دماغه (الصندوق الأسود).

مما تقدم يمكننا التذكير والتأكيد على مقولة :"...**أن الموضوعية الحقة هي في إدراكنا للذاتية**" وبالتالي فإن التعميم العشوائي الذي يتجاهل الذاتية هو تعميم لا يمت إلى الموضوعية بصلة. وهذا يستتبع التوقع بأن نتيجـة الصراع محسومة لصالح الطب النفسي الذي يصر على التأكيد بـأن **كـل مريض يهذي ويهلوس على طريقته الخاصة ووفق ذاتية** هي كناية عـن تراكم تجاربه المعيشة مع البيئية المحيطة به. وهو تـراكم مخـزون فـي دماغه (الصندوق الأسود). وهكذا يكون من الطبيعي أن نتوقـع هزيمـة البراغماتية وتراجعها. ولكن أيضاً احتفاظها بإغراءاتها وجاذبيتها. ولعلنـا نجد الدليل على ذلك في إطار الاختصاص (فالخروج من دائرته قد يكون مربكاً للقارئ) حيث نرى قائمة من الاختصاصيين الذين حاربوا السلوكية وازدروها وأبعادها ثم عادوا لاعتمادها ولو جزئياً وبعـد تعـديل. ومـن هؤلاء نذكر كارل بريبرام (صاحب نظرية الهولوغراف الدماغي) وبيـار مارتي (التيـار السيكوسـوماتي – التحليلـي) وألبـرت ألـيس (التيـار العقلاني)... إلخ .

ولعل هذه الأمثلة تعود بنا إلى رزانة الاختصـاص الـذي لا يعـرف التعصب والمواقف المسبقة. والذي يرى الحق في الجمـع بـين مختلـف الوسائل القادرة على مساعدة المريض. وبالتالي في الجمع بـين أجـزاء الحقيقة مهما بدت متنافرة ومتناقضة.

لهذه الأسباب مجتمعة نجد الاختصاص ينظـر بـرودة شـديدة إلـى إطلاقيات من نوع : نهاية التاريخ والأيديولوجيا والأنثربولوجيـا وصـدام الحضارات... ألخ. إذ يصر الطب النفسي على كون هذه العناصر تتضافر وتجتمع في مخاض ولادة **عالم جديد يحمل في طياته علائم ورائية تنتمي إلى مجمل هذه الماضويات الفكرية.**

أنه الإنسان الذي يرتبط كماله بملكيته لكافة هذه المكونات المخزونـة داخل الصندوق الأسود.

Arabpsynet Arabic Thesis Search
www.arabpsynet.com
أطـروحـات
بحـث
بحـث متقـدم
Send your papers via THESIS FORM
www.arabpsynet.com/these/ThesForm.htm

Arabpsynet English Thesis Search
www.arabpsynet.com
Psy Thesis
Search
Advanced search
Send your thesis summary via THESIS FORM
www.arabpsynet.com/these/ThesForm.htm

Arabpsynet Psychiatrists Search
English Edition - French Edition – Arabic Edition
www.arabpsynet.com/Homepage/Psy-Ists.asp
Psychiatrists-CV
Search
Update Form CV
Send your Scientific CV via CV FORM

Arabpsynet Psychologists Search
English Edition - French Edition – Arabic Edition
www.arabpsynet.com/Homepage/Psy-Gists.asp
Psychologists-CV
Search
Update Form CV
Send your Scientific CV via CV FORM